حين جلست امرأة عارضة ابناءها الصغار للبيع!

سـوق مريدي.. صخـب الجوع والتمـرد

كتابة وتصوير سلمان عبد الواحد كيوش

لم يدر بخلده ابداً وهو يضم الصفائح المعدنية الى بعضها، في تقاطع شارعين في مدينة الثورة كي يقيم سقيفته لبيع الشاي وقناني المشروبات الغازية، انه يشيد اوسع سوق عرفته المدينة، سيسمى باسمه، (مريدي)، فيما تغير اسم المدينة اكثر من مرة.كانت السقيفة تعويضاً لمقهى كان قد فقده في (الشاكرية) في كرخ بغداد بعد اجبار اهلها على الارتحال الى المدينة الجديدة في شرق بغداد (الثورة). ارست السقيفة دعائمها سنة ١٩٦٣ في ارض بكر، واصبحت محطة استراحة صغيرة لسواق الباصات القادمة من النهضة وغيرها من مناطق بغداد. ولان الانسان يميل الى الدقة والاختصار في كلامه خاصة المتكرر منه، بدأ السائقون يعينون نهاية رحلتهم لركاب حافلاتهم (حدنا لمريدي) كإشارة الى سقيفة مريدي. وهكذا شاع الاسم ليصبح مألوفاً لاسماع العراقيين داخل العراق وخارجه.ومريدي تصغير محبب لـ (مردي)، والمردي هو عصا طويلة من قصب خاص يمتاز بالصلابة والمتانة، يتولى اهل الجنوب تسيير مشاحيفهم به في المياه الضحلة.

كان ايقاع السوق الذي ولد غضاً صغيراً بطيئاً كحال غيره من الاسواق كسوق (جمالة) و (عريبة) و (العورة)، الا ان توسطه للمدينة عملقه. لكن العملقة الحقيقية والانفجار الذي اوصل شظاياه المتطايرة الى موقع (الصورة) غرباً ومشارف المستشفى شرقاً وشارع الفلاح جنوباً، حدثا بعد بدء الحصار، ذلك ان بضائع كويتية طارئة غزته بكميات هائلة، ولان الفاقة نشبت اظفارها في لحم سكان المدينة. منذ ذلك الحين اصبح السوق (بارومتراً) يشير الى استشراء الجوع ويقيس الغليان في الاوصال الرافضة لمنطق البداوة المفضي الى الموت.

قصد السوق من لم يجد قوت يومه حاملاً متاع بيته مما اقنع نفسه انه لم يعد بحاجة اليه. ما ان يقبض دراهمه القليلة عادة حتى يعرج الى موطن آخر في السوق لكي يشتري ما يوقف عض الجوع في جسده وجسد عياله المتضورين.

ولأن عدد من لا يجدون قوت يومهم في تزايد مستمر كإفراز طبيعي لوطأة الحصار ازدحم السوق بالناس والبضاعة، فدبت الفوضى فيه، فوضى بضاعة تبدأ بإبرة الخياطة وتنتهي بـ (الكناتير) العملاقة. ولان الانسان ميال الى (الترتيب) بغريزته تخصص السوق وتفرع فهنا يقف باعة الاثاث الخشبية وهنا باعة المدافئ والمراوح، وهنا المبردات وهنا الدرجات الهوائية وهنا الادوات الاحتياطية للسيارات وهنا الساعات وهنا....وهنا...

اما ذوي (البسطات) التي لا يوحدها سوى فوضاها، فهم الوحيدون الذين لا مكان محدد لهم، يجمعهم وجود قطعة (الجادر) التي يفترشونها ثم يوزعون حاجيات يثير فيك بعضها سؤالاً ملتاعاً: (من عساه يكون بحاجة الى هذه، او تلك؟) عدد لا حصر له من قطع صغيرة وكبيرة، قديمة وحديثة، سقط عنها الاتفاق على صلاحيتها، قد تنتهي عند مغيب الشمس الى مجرد انقاض تضاف الى تلول القمامة القريبة بعد ان تكون مرت بمرحلة (الحاجة بخمسة وعشرين) او (تلث حاجات بخمسين). ربما كان للقديم منها فائدة واحدة هي توثيقها صبر الانسان القديم وسخاءه ودأبه على عدم استغفال المستهلكين وهو يخطط لانتاجه وصناعته فهي ثقيلة متينة وفيها من الحرص على الجمال والفرادة ما لم نعد نجده في الصناعة الحالية.

لعبت (الجوادر) دوراً ملحوظاً في المحافظة على السوق في شطره العائم المتنقل في وقت المداهمات المباغتة التي تشنها امانة بغداد مسلحة رجالها بهراوات بائسة امام دروع الفاقة الحديدية. فما على صاحب (الجادر) حين يستشعر الخطر الذي يشم رائحته عن بعد سوى لملمة الاطراف الاربعة على بعضها، يحمل بضاعته بعدها ويفر والجأ احد الازقة الكثيرة المنتشرة على جانبي السوق ويبقى هناك مراقباً زوال (الغارة) ليعود من جديد.

معلمون في السوق

مع اشتداد انغراز انياب الحصار في لحم الفقراء، يمعن (مريدي) في طوله واتساعه ويتضاعف عدد باعته والمتجولون فيه وتزداد حكاياته غرابة. حكايات غياب المنطق، منطق حكومة تخلت عن شعبها تماماً، فلم تر فيه الا قطيعاً بشرياً تسوقه حسب اهواء مريضة اتعبها الجدب وعقد النرجسية والبداوة. تبذل قصارى جهدها في زيادة لوعته وهي تصر على اعطاء راتب شهري مقداره ثلاثة آلاف دينار، قد تكون كافية لعائلة قنوعة تخلت عن كثير من شروط الحياة الاساسية مدة يومين، لكنها لم تبذل ادنى جهد في الاجابة عن سؤال كبير: كيف تعيش هذه العائلة مدة ثمانية وعشرين يوماً اخرى؟ وعجز الحكومة عن ابداء السؤال والاجابة عنه لم يمنعها من ان تبعث مراقبيها وملاحظيها التربويين لمراقبة حضور الموظفين والعمال وادائهم لاعمالهم لمراقبة المعلمين في صفوفهم كي تطمئن الى حيويتهم مع طلابهم وهي تعلم علم اليقين ان هذا المعلم او ذاك لم يعد ينتظر (رأس الشهر) لكي يقسم بنجاح راتبه على احتياجاته، فما عاد الامر بحاجة الى هذا الانتظار او التقسيم فقد انخرط موظفو الدولة في مؤسسة مريدي، خاصة المعلمين منهم. ولا ادري سر هذه الوفرة من المعلمين، ربما لانهم اوضح الناس مثالاً على غيبة العقل والمنطق في فاقتهم فهم بداية الشروع في التحضر لدى الامم كافة. وربما لعدد ساعات العمل اليومية القليلة التي تتيح لهم توزيع عملهم كـ(دوارة) وتعني الباحثين بين البيوت والاسواق الاخرى عن حاجيات ما لغرض شرائها، وبين عرضها في مريدي.

امتزج المعلمون بالاميين تحت خيمة مريدي الكبيرة. اسلم على بعضهم في تلافيف السوق:

- شلونك استاد؟

- يا استاد؟ احنا بمريدي!

مريدي والحكومة العاجية يحولان المعلمين الى (عتاكة) مع سبق الاصرار، يجوبون الازقة هاتفين (حاجة عتيكة للبيع).

سوق للرفض!

سوق مريدي وليد العوز بما لا يدع مجالاً للشك ليس العوز المادي فحسب بل العوز الى منطق العقل السليم والفهم الصحيح في اتون ما يجري في دهاليز القصر الجمهوري واروقة (قصور الشعب). انه ليس سوقاً للبضاعة التي لها ابعاد ثلاثة بل مكان يصحح فيه كل اعوجاج فتنامت فيه حلقات صغيرة في البداية ثم ازدهرت فصارت شبكات تتولى مهمة التزوير سواء للوثائق او العملات (الطبع)، ومكان تلتقي فيه كوادر الرفض الشعبي لنهج الحكومة القاهرة المستبدة. وهكذا اصبح (مريدي) (مفهوماً) للرفض، كانه منطقة حرة بين حدود القهر والامل، وكأن من يلجه يرفع عن كاهله حجب السلطة القاتمة رغم انه يعج بالمخبرين السريين كتاب التقارير.

وهكذا تعددت اساليب الحكومة في امحاء هذا السوق ومحق معارضته ورفض الناس المكبوت لها، خاصة بعد انطلاق شرارة التمرد في المدينة في آذار ١٩٩١ من بين ركام بضاعته التي تحولت الى اسلحة بمتناول الجميع، رجموا بها نصب الاستبداد، فاستنفرت امانة بغداد اداريها واصحاب الراي فيها لاختيار الاسلوب الانجح لتحقيق هذا الهدف الكبير.

وفشلت هذه الاساليب رغم معاضدة افواج الطوارئ وقوات التدخل السريع. يغيب مريدي سويعات بعد كل حملة لكنه سرعان ما يفيق من اغماءته العابرة اكثر حيوية واكثر حرصاً على بقائه. ذلك لان السلطة لا تلتفت الى اسباب نشوئه المتاصلة بل تعالج النتائج كدأب لم يفارقها حتى زوالها.

وهكذا اشتد ساعد مريدي وابى الا البقاء معززاً بقاءه برشاوى كانت تنهال على موظفي الحكومة صناع القرار من كوادر امانة بغداد من جهة والشرطة من جهة اخرى.

هل يمكن عد مريدي ظاهرة نفسية-اجتماعية؟

لم يقم مريدي اختصاراً للمسافات التي يختزلها المرء للحصول على بضاعته فهو محاط بالاسواق من جميع جهاته. ولو كان الاختصار هدفه لاستمر صغيراً ولم ينفجر. ولم ينشئه التعيين العمراني، فما من احد قرر ان يصبح مريدي سوقاً. وان كان ثمة قرار فما كان خيال صاحبة ليزيد على توفير الطماطم والبصل وسلال الخضرة.

نشأ مريدي وكبر وازدهر وتعملق مسترشداً بوتيرة التعملق المليوني للمدينة، حمل بين دروبه نبض هذه الملايين المسورة بالنبذ والاهمال وحاجتها وهمومها وبعدها الشاسع عن مواكبة نهج السلطة الشاذ، فانطبع بشذوذها، وتأقلم مع اللامنطق واشار اليه ما من نأمة ولا خلجة او همسة في دواوين المدينة ومضايفها ورؤوس ازقتها الا وانعكست فيه، فتراه ساكناً حيناً فتراه ساكناً حيناً ويمور بعنفوان غولي حيناً آخر. تطفو ابناء المدينة على رؤوس رواده وسالكيه وتحلق هموم الناس في عصاريه، حوارات وخوض مفجوع، تنتهي جميعاً بإقرار وتعيين ما يجب ان يكون وتطرح البدائل ازاء شطط الحكومة.. نكات وطرائف تضطرم على الشفاه، تفضح الحكومة وامعانها في افتراس الابرياء، واغان ذائعة الصيت تترنم بإنجازات الفذاذة والتفرد تنعكس هناك بتورية لا يفقهها الا الموغلون في حرمانهم. اصر مريدي على الخطأ في تكوينه فهو يستحوذ على الارصفة فضلاً عن الشوارع، الكل يجمع على ان هذا خطأ فادح، الباعة والمشترون، لكنهم يعادلون في لا وعيهم الجمعي اخطاء سلطوية اكبر وافدح حين تفضي بهم حواراتهم الى انهم اغنى شعب على وجه البسيطة، ولكنهم لا يفهمون سر فاقتهم وفقرهم المدقع.

تنوعت بضاعة مريدي بشكل لم تشهده سوق عراقية اخرى، حتى ان البعض علق: ان السوق تبيع كل شيء الا البشر. لكن واقعة ربما كانت الوحيدة عبرت هذا الاستثناء حين جلست امرأة ذات عصر من عام ١٩٩٦ على ما اذكر، عارضة اطفالها الصغار للبيع!! حتى لو غلبنا حسنا الجاني المدمن للهزائم وقلنا انه اسلوب رخيص للاستجداؤ وفذلكة غرضها استدرار التعاطف فهو يحمل في حقيبته استحضار الاستعداد والتهيؤ وتبرير الاسباب لان الجميع تعاطف معها مذعنين انها البداية التي قد تطال آخرين.

حكايات الاثراء السريع

ثمة سلعة ملقاة هناك بإهمال مع غيرها من السلع، لا يعرفها الا المختصون ينتشلها الملم بها فيساوم صاحبها مؤكداً انها لا تساوي شيئاً. وهكذا تتم الصفقة بدراهم قليلة ثم تباع في مكان آخر بأضعاف مضاعفة. يشتمل هذا الكلام سلعاً لها طابع القدم مما اصطلح عليه (الانتيكا) كالساعات والسجاد والخرز والمسابح ولوحات فنية وقطع آثار وغيرها. اشترى احد معارفي فصاً مربع الشكل له لون الحصى وقتامته في عين غير المختص، يحتفظ به الان رغم ان آخرين دفعوا ضعف ما قد دفع ثمناً له ربما مئة مرة.

يمكن اختصار منطق السوق على انه نوع من الاصطياد فكل الباعة فيه يشترون الاشياء على امل بيعها لـ (الرغاب) بسعر اعلى بعد ازالة ما علق بها من آثار الدهر؟

السوق بعد السقوط

انفجر السوق للمرة الثانية طولاً وعرضاً وارتفاعاً، واغلقت الشوارع تماماً وعبر الحاجز الطبيعي المتمثل بمركز الشرطة ليمتد الى ساحة (الصورة). حدث هذا بعد (الحواسم). اختفت (البسطيات) البائسة لانها لم تعد شيئاً امام كنوز دوائر الدولة. استمر هذا الامر للاشهر التي تلت السقوط ثم بدأت عودة اخرى لمعالم مريدي المعهودة مضافاً لها نوع جديد كل الجدة متمثل بقمامة القوات المتعددة الجنسيات من طعام معلب وادوية ومنظفات وادوات شخصية للجنود. وشهد ظاهرة اخرى جديدة في علانيتها، تلك هي بيع الاسلحة الخفيفة والمتوسطة وربما الثقيلة. فحاذر وانت تمر هناك، فربما ساقك سوء حظك الى ان تكون قريباً جداً ممن يجرب سلاحه الجديد الذي اشتراه تواً.

من ممنوعات الاسلحة وقطع غيارها الى ممنوعات الحبوب المخدرة والاقراص الاباحية

الباب الشرقي يعاني الفوضى واللصوص والخارجين عن القانون

ماجد موجد

لا اعتقد ان مكاناً في العراق حقق حضوراً وشيوعاً في الذاكرة الشعبية والعراقية بشكل عام مثلما عرف عن منطقة (الباب الشرقي) او (سوق باب الشرقي) فهذه المنطقة معروفة لدى جميع العراقيين، وتمثل لدى زائري بغداد من محافظات العراق المقام الاول. بل لعل الباب الشرقي يعد للبعض بغداد برمتها، لا سيما زوارها من قرى المحافظات الجنوبية، فلا يمكن لاحد زيارة بغداد دون ان يكون قد ترك اثراً من خطواته على شوارع هذه المنطقة او اسواقها او مطاعمها الشعبية الكثيرة. وعندما كنت آتي انا ورفقائي او اولاود عمومتي من مدينة الديوانية فليس لنا مقام نقضي به اوقاتنا سوى حارات في منطقة الباب الشرقي ومطاعمها وحاناتها وصالات السينما التي تحيطها ،ولم يكن لاحد منا ان يجرأ على الابتعاد عن هذه المنطقة رغم ان هواجسنا كانت تدفعنا احياناً الى الذهاب في العمق باتجاه شارع السعدون، غير ان المناخ الشعبي الحميم الذي تميزت به منطقة الباب الشرقي يجعل زوارها الجنوبيين يقضون اوقاتهم فيها، وعند عودتهم الى مدنهم يقولون: لقد قضينا اوقاتاً ممتعة في بغداد...

ماذا تحت المظلات؟

وللباب الشرقي سوق يقع على شمال الشارع الممتد من ساحة التحرير حيث نصب الحرية وحتى ساحة الطيران حيث جدارية فائق حسن، ويتكون هذا السوق من عدد من الباعة الذي نصبوا مظلات فوق بضائعهم المعروضة وللسوق شعار ضمني ربما استمد معناه خطأ من نصب جواد سليم الداعي للحرية.

فحين تمرق بين هذه المظلات تجد انها لم تدع شيئاً الا وعرضته تحت ظلالها بل ان هذه المظلات قد عرض اصحابها اشياء لا تخطر على بال احد، لا سيما في المدة التي اعقبت سقوط نظام صدام

وكان من المعروضات مثلاً اسلحة ثقيلة. فقد تجد هاوناً عيار ١٢٠ ملم، او قاذفات (آر بي جي سفن) و نواظير مدرعات ليلية واجهزة لاسلكي وقطع غيار لاجهزة عسكرية مختلفة اما الاسلحة الخفيفة فهذا ما لا يدهشك لا لانواعه الكثيرة ولا لاعداده التي تكفي تسليح فوج بأعتدته المختلفة المناشئ، فضلاً عن اجزاء من مصانع الاسلحة التي اتى بها بعضهم من المنشآت العسكرية الكثيرة التي تركها موظفوها وعمالها ابان الحرب فوقعت بأيدي اناس لم يعرفوا شيئاً عن قيمتها لكنهم كانوا يتاجرون بها حسب قوانين العرض والطلب.

ولا نريد الدخول بتفصيلات عن الجهات التي ذهبت اليها تلك الآليات والاجهزة والاسلحة. فما يهمنا ان هذا السوق عاش (عصراً ذهبياً) بهول المعروضات وتنوعها وخطورتها وحيث ان الفراغ الامني وغياب القانون سهل عرض مثل تلك الاسلحة والممنوعات مثلما سهل الحصول على تلك المعروضات العسكرية الخطيرة.

مخدرات وتزوير

الى جانب ذلك كانت هناك ممنوعات ربما تعد اكثر خطورة وهي المتاجرة بالعقاقير المخدرة بكافة صنوفها وانواعها بالاضافة الى انتشار المختصين بتزوير الوثائق وايضاً بكل صنوفها وانواعها، وقد وفرت هذه الممنوعات لمن يريد المساس بأمن البلد فرصة لا تتكرر. وهو ما حدث وما رأينا نتائجه فيما بعد، ولكن رجال الشرطة ومداهمتهم المستمرة قللت من تلك المعروضات، الا انها لم تنته بل عمد العاملون في مفاسد المجتمع الى وسائل اخرى لا تحمل مظاهر واضحة لخطورتها وهي بذلك تموه متابعة رجال الشرطة..

قبل ايام قمنا بجولة في سوق (الباب المعظم) وتزامنت جولتنا مع انشغال رجال الشرطة والاجهزة الامنية الاخرى بما يدور في العراق من اشتباكات. وبطبيعة الحال فإن هذه الاجواء تعطي فسحة لمستغلي الاوضاع الامنية غير المستقرة للقيام بأعمالهم وعرض كل ما هو ممنوع تحت مظلاتهم، ورغم ان المتاجرة بالاسلحة يجري خفية وبطرق سرية الا انك من الممكن ان تسمع احداً يقول لك تريد (نص صيني) او كلمة (ستيل) او (اخمص) وفهمت انها مصنفات للبندقية كلاشنكوف، او انك تسمع مثلاً (الواحد بمية)والمقصود ان يبيعك مليون دينار مزور مقابل مئة الف من العملة الاصلية، او تسمع مثلاً شهادة جنسية، جواز سفر، بكلوريوس، ماجستير..الخ، وهذه العبارات تقول لك ان هناك من يسهل لك الامر بتزوير تلك الوثائق بلمح البصر ومقابل مبالغ زهيدة مقارنة بقضاء سنوات من الدراسة والسهر، فبإمكانك ان تكون من حملةالشهادات العليا في غضون نصف ساعة على اعلى تقديم..

هذا بالنسبة للتعامل بالممنوعات بطرق الخفية والمراوغة والشطارة، اما ما هو غير ذلك فمن السهولة ان تجد معروضات ممنوعة بشكل مباشر. ومن ذلك مثلاً الحبوب المخدرة بكافة انواعها واقراص الـ (CD) الاباحية، وغير ذلك من الادوية والعقاقير والمستلزمات الطبية التي تعرض بشكل وكأن بائعها يعرض قطعاً من الحلوى والشوكولاتة هل هذا كل ما يعرض في السوق؟، بالطبع لا .. فهذا السوق ولأنه لم يتخصص بمادة معينة فإن زائره يجد فيه كل ما يحتاجه فمن الملابس والاحذية الى الزجاجيات ولعب الاطفال الى المواد والعدد اليدوية وغير ذلك من مواد التجميل والمواد الغذائية فضلاً عن الفواكه والخضار.

ما نريده ان يتطهر هذا السوق من المسيئين المتاجرين بالسموم و الممنوعات وان تنتبه امانة بغداد ومديرية شرطة بغداد الى تنظيم السوق واعطائه وجهاً حضارياً وايقاف المسيئين به وله...

تجارة الاثاث المستعمل في كربلاء

انتصار السعداوي

تصويرنجم عبد خضير

راجت هذه الايام تجارة الاثاث المنزلي المستعمل المستورد (البالات) وقد افترش الباعة والسماسرة الارصفة والطرقات المهمة والرئيسة في مدينة كربلاء لعرض بضاعتهم، وكان للمدى جولة بين بائعين ومتبضعين في هذا السوق المستحدث لتسليط الضوء على طبيعة هذا النشاط ومضاره وفوائده.

كان اولها مع الشاب احمد هاشم (٢٠ عاماً)، الذي افترش رصيفاً طوله عشرات الامتار في شارع مهم من شوارع كربلاء هو شارع المحافظة. سألت احمد اذا كان هناك اقبال شديد على هذه الاثاث فأجاب: نعم هناك اقبال معقول، وخصوصاً البضاعة التي تأتي من صفوان فهي اجود واجمل من تلك التي تأتي من سوريا.

احد التجار اسمه (ابو رويدة) سألناه عن سبب ارتفاع اسعارها قياساً للسوق المحلي لنفس الاثاث فأجاب:

-ان الاسعار اغلى حتى من البضاعة المصنعة محلياً والسبب في ذلك يعود الى الاستيراد يكون بالعملة الصعبة وان تكاليف النقل ولعدم استقرار الوضع الامني تكون غالية جداً فضلاً عن كونها شيئاً جديداً وجميلاً تكون مطلوبة وهذا يرفع اسعارها.

- والمواطنة عبير كريم كانت تساوم.. وترغب في شراء كاونتر بخمسة ابواب.. كان سعره ٤٥٠,٠٠٠ دينار عراقي فقلن لها ان هذا السعر هو ثلاثة اضعاف سعر الكاونتر العراقي.. الجديد.. فلماذا انت مصرة على شرائه؟..اجابت: لأنه جميل ومتين، اعجبني لأنه يشبه الاثاث الذي تظهر في المسلسلات العربية.

السيد نجاح مهدي علي مدير الشركة العامة لتجارة الحديد والخشب في كربلاء التابعة لوزارة التجارة سألناه اذا كانت هذه التجارة تخدم الاقتصاد الوطني؟ فقال:

- هي لا تخدم الاقتصاد الوطني ولا تحقق زيادة في الدخل القومي، لأنها تمتص العملة الصعبة وحالها في ذلك حال استيراد السيارات المستعملة. الا اذا اعتمدت بالدينار العراقي فيكون الوضع والتأثير الاقتصادي مختلفاً طبعاً.

- وعلى اية حال فإن هذا النط السلوكي الاستهلاكي للمواطنين سيتغير بتغير الوضع الاقتصادي، وارتفاع الدخل الفردي والقضاء على البطالة.

واخيراً

من المؤكد اننا نختلف في رؤيتنا للسوق وتقييمنا له، فمنا من يراه مكاناً موبوءاً (بالتقفيص) ومنا من يراه سوقاً عادياً يأنس في المرور في زحمته، ومنا من لا يرى فيه سوى معارضته وتمرده الذين بدآ يفقدان معانيهما على ما يعتقد. لكن ما نتفق عليه انه ناشز في لا انتظامه وفوضاه وقطعه للطرق التي تحتاجها المدينة المليونية ربما اكثر من حاجتها اليه. ونتفق ايضاً على ان الواقفين تحت الشمس فيه سيغادرونه ما ان يحصلوا على فرصة عمل في بلدهم الثري، سيرفس هؤلاء بضاعتهم البائسة بما فيها (الجادر) الذي سد رمقهم من غائلة الجوع.